مالك السعيد أو (الفيلسوف المجهول)

لقد عاد صوت العربة المزعج يطرق سمعى مرة أخرى ، صوت عربة مالك السعيد — على حد تعبيره — « لا مالك الحزين » تلك العربة المكونة من صندوقين خشبيين ، وثلاث عجلات ، يتوسط جوفها برميل صغير ، وإلى جانبه رف من الخشب وضعت عليه بعض كؤوس زجاجية مع سطل صغير . وإن ذلك الصوت من تلك العربة لإعلان بحلول أثقل فصل سنته الطبيعة فى نهجها وأحدثته الأرض من دورانها فتحملنامتاعبه وقسوته ، ذاك هو فصل الصيف .

كنت واقفاً فى فناء البيت عند ما سمعت ذلك الصوت المنبعث من العربة فهرعت مسرعاً لمقابلة ذلك الفيلسوف الفطرى « مالك » ، وما أن تخطيت الباب حتى رأيته خلف عربته يدفعها بيده ويعلو صوته بأنشودته المحببة عنده :

يا دنيتى مهما جلبت علىَّ الشقاء
لا أزعج ولا لج علىَّ لوم
لابد يدور الفلك وتقتضى
وأزعلج ولا لج علىَّ لوم

فاستوقفته وكنت ذا معرفة سطحية به منذ الصيف الماضى إذ كنت أسمع له كلمات يلقيها على عملائه من أطفال الحى الذين يلتفون حول عربته ليتناولوا كؤوس الشراب (الشربت) وكانت تلك الكلمات التى يفوه بها لأولئك الأطفال ذات معان وتأثير يستدل السامع منها على لوعة مالك وذكرياته العذاب لأيام طفولته وعلى ما قاساه أيام صلابته ، وكنت قد أضمرت فى نفسى مناقشته منذ العام الماضى لاستجلاء حقيقته ولكننى كنت أنتظر الفرص المواتية ، وهاهى ذى الفرصة سانحة الآن لسبر غوره .

استوقفته وسلمت عليه فرد على التحية بأحسن منها ومد لى يده مصافحاً كأنه قديم عهد بى ، فقلت له تسمح من فضلك بالإجابة على بعض أسئلة سأوجهها إليك ؟ فرفع رأسه ونظر إلى ثم قال : تفضل يا سيدى سل عما تحب أن تسأل عنه .

فقلت له : إنى أراك دائماً تنشد هذه الأغنية « يادنيتى » وأراك بها تتحدى وتتوعد كأنما الدنيا غادرة بك ، فبادرنى بابتسامة عريضة فهمت منها وداعته وتهكمه ، وداعته فى حديثه وتهكمه على دنياه . ثم قال سيدى إذا أنا لم أسخر من الدنيا فثق أنها ستجعلنى تحت سنابكها ، وانها ستتطاول فى شقائى وستتمادى فى تعذيبى . شأنها بذلك شأن معاملتها للرعاديد من الخلق . وأطرق مفكراً وأمسك ملعقة تناولها من إحدى كؤوسه وأخذ يضرب بها يده . فلما سمعت ذلك منه أكبرته وعلمت أنه على جانب من الفطنة والذكاء ، فدفعنى ذلك الإعجاب إلى استكشاف مابنفسه فقلت له : — لابد وأن الدنيا على حد تعبيرك — يا مالك قد تطاولت عليك . فقال : — وهل أكثر من هذا التطاول ؟ فقلت له : — زدنى إيضاحاً . فقال : — لقد نشأت فى بيت كنت بين جنباته قبلة ساكنيه وكنت وحيداً لأب قد وهبه الله من خيراته وأوسع عليه فى عيشه ، وأم هى كل شىء عند ذلك الأب الحنون يحيط بها عدد وافر من الخدم والإماء وأنا حينذاك طفل يروق لوالدى مايروق لى ويمقتان ماأمقت . ثم أطرق وجعل يمسح شاربه بالملعقة وصعّد من صدره زفرة عبرت عن كل شىء فى نفسه وقال : — وخلاصة القول : قد جار الزمان على تلك المملكة الصغيرة فخاصم ربها حتى أفنى ما بيده والحقه به ، ثم عاد إلى أفرادها ولم يسلم منهم غيرى . نعم أنا الوحيد الذى سلمت من مكره ، وكنت إذ ذاك على أبواب الصلابة فحاول الهم واليأس أن يسيطرا على ، غير أنى كافحتهما كفاح من رغب فى الموت

فوهبت له الحياة . (وعمر الشقى بقى) كما يقال ياعم . وبعد هذا كله لم يرق لى عيش فى تلك البلاد ولم أستسغ النظر إلى تلك الأطلال . فقلت له : وأى بلاد تقصد فقال : سهل الجزيرة الاحساء إحدى مشتقات الوطن العربى الأكبر ، فهجرت مسقط رأسى إلى وطنى وتركت وطنى الأول إلى وطنى الآخر ، تركت الاحساء إلى الكويت ، إذ كنت على علم بحالة الحياة فيها وحسن خلق أهلها . فقلت له : عفواً . حللت وطنك وقدمت قومك وأهلك . فقال لى بعزة وكبرياء : هذا شىء مفروغ منه . وإن وطناً حن على من لاحق لهم أن ينالوا حنوه من غير بنى جلدته ، فآواهم وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، لجدير به أن يحنو على أبناء جلدته وأهله . وأنا ابن الضاد . وبلاد العرب كلها وطن لى ، ويحق لى فيها مايحق لإخوانى ، وإنى ألقيت عصا الترحال فى جنبات هذه الأرض الميمونة ، وأنا سعيد إذ تمكنت من خلق عمل أرتزق منه ، وهو ماتراه أمام ناظريك . فقلت له : — وهل هذا العمل يكفل عيشك ؟ فأجاب : نعم إنه لكفيل بعيشى وعيش زوجتى التى وفقت للاقتران بها هنا . فقلت : عجباً ولك زوج أيضاً ؟ فقال نعم : تزوجت منذ ثمانية أشهر وما تراه من مرح وبهجة كل ذلك بفضلها ، فهى التى غيرت مجرى حياتى ، وهى سر سعادتى وسبب شدوى ، وأنى بها مالك السعيد لا « مالك الحزين » الذى يتناقل الصبيان قصته . وهنا جاء طفل وطلب منه كأساً من الشراب فتناول كأساً من تلك الكؤوس وغمسه فى السطل الصغير ، ثم عاد فغمسه فى البرميل وناوله للطفل ، فما إن أخذه الطفل وعبه حتى نظرت إليه فضحك وقال : قد علمت بما ستقول وإنى حريص على هذه الجآذر حرصكم عليها ، ولكن ما العمل وهذه سنتكم فأنا أعلم أن هذا كأس سم زعاف عند غيرى من الباعة أما عندى فهو شراب مستطاب حيث أنى قد تعهدت الكؤوس بالتعقيم ، ولولاه ماجرأت على مزاولة هذا العمل الذى أراه عند محترفيه جرماً ، فأنا قد أعددت هذا السطل الذى تراه — وأشار بيده — ووضعت فيه (كربونات البوتاسيوم) المحللة فى الماء وانى أغمس الكأس فيه بعد فراغ كل مشتر . ولكن ما رأيك فى هؤلاء الباعة المجرمين الذين يعرضون حياة ألوف من نشئنا العزيز إلى الدمار والاضمحلال ؟ ثم أردف قائلاً : لكن اللوم لم يكن عليهم بل على من يهمهم الأمر : أى على مؤسسات الصحة العامة ، إذ يجدر بها أن تحرم هذا العمل أو الإجرام — كما أراه — خير من أن تبنى المستشفيات وتحضر العقاقير وتجلب الأطباء ولتعلم ياسيدى أن « الوقاية خير من العلاج » وأن هذا النشء أمانة فى أعناقنا .

فأكبرت هذه الروح فيه وسألته : هل تحصلت على شىء من العلم ؟ قال نعم قليل من الفقه والنحو ، وهنا لاحظت أن فيلسوفنا المجهول قد وهبه البارى عز وجل ذكاء وفطنة هما سبب تعمقه فى أمور يندر أن يفهمها من فاقه ثقافة وعلماً .

وأخيراً انتهى بى المطاف مع الفيلسوف المجهول فودعته بعد أن اجتليت أمره ودفع عربته وسار بها وهو يردد أنشودته « يادنيتى » وعدت إلى البيت وأنا أذرع إلى الله جل شأنه أن يقيض لهذا النشء من ينتشله من هذه الأخطار ويضرب بيد من حديد على من يقوم ببيع الأوبئة بالنقود على فلذات أكباد الوطن الفدى وما ذلك على الله بعزيز .

«الكويت» **عبد اللطيف العمر**

ذكاء أحمد بن طولون

قيل كان أحمد بن طولون يأكل يوما فى إحدى حدائقه ، فرأى سائلا فى ثياب رثة ، فأرسل إليه غلاما برغيف ودجاجة وشريحة لحم وقطعة من الحلوى . فرجع الغلام من غير أن يأخذ السائل منه شيئا ، فأمر ابن طولون به فأحضر ، وأخذ يسأله ، فأجاب من غير أن يتلجلج أو يضطرب من هيبته ، فاتهمه بأنه جاسوس بعض الأعداء ، فاعترف الرجل بذلك .

فقال بعض الحاضرين : هذا والله سحر ! فقال أحمد بن طولون : ماهو بسحر ولكننى رأيت سوء هيئة الرجل وإباءه عن طعام يتمنى الشبعان أن يأكله ، وكذلك رأيت جرأته وثباته فحكمت عليه بما حكمت .